تَحْلِيْلُ الْخِطَابِ الدِّيْنِيِّ - سُوْرَةُ الْوَاقِعَةِ (أُنْمُوْذَجًا)
- دِرَاسَةٌ أُسْلُوْبِيَّةٌ -

Analyzing Religious Discourse: A Stylistic Study of Surah Al-Waqi'ah
- Stylistic study -

د. دنيا أحمد لشهب
Dr. Dunya ahmad Lashhab

المغرب / جامعة سيدي محمد عبدالله / كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
Morocco/Sidi Mohamed Abdellah University / Faculty of Arts and Humanities.

douniaam4@gmail.com

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

مُلَخَّصُ البحث:

تتطلّب مقاربة النّصوص الرّصينة اعتماد مناهجَ علميّة دقيقة، قادرة على كشف الدّلالات المسترة، وإبراز المعاني الغائرة، ولمّا كان الاختيار قد وقع على الخطاب الدّينيّ القرآنيّ؛ وهو نصّ باذخ -لامحالة – معجز من جهة لفظه ومعناه، غنيّ بمعانيه وحقائقه وأسراره وبلاغته وبيانه؛ لا بدّ -إذًا- من الإفادة من الدّرس الأسلوبيّ – الّذي يُعَدُّ فرعًا من العلوم الإنسانيّة الشّابّة على حسب تعبير النّاقد صلاح فضل، والتّوسّل بخطوات منهجه، لدراسة بعض آيات القرآن الكريم، ورصد سماتها الفنّيّة، واستنطاق بعض ملامح إعجازها الجماليّ الفذّ. ذلك أنّ هذا المنهج هو الأَلْيق بمثل هذه الدّراسات، لِما له مِن قدرة على اختراق عالم النّصّ، وكشف مظاهر إعجازه وفنّيّته.

تسعى هذه الورقة الموسومة (تحليل الخطاب الدّينيّ، سورة الواقعة- أنموذجًا – دراسة أسلوبيّة)، إلى تطبيق المقاربة الأسلوبيّة في دراسة الخطاب القرآنيّ المعجز؛ إذ ستعنى بدراسة سورة الواقعة باقتفاء روح المنهج الأسلوبيّ، واحترام آليّات مقاربته؛ وذلك بدراسة مستويات التّحليل الآتية: المستوى الصّوتيّ، ثمّ المستوى النّحويّ أو التّركيبيّ، فالمستوى البيانيّ.

الكلمات المفتاحيّة: المنهج الأسلوبيّ – الخطاب الدّينيّ – مستويات التّحليل.

Abstract :

A rigorous approach to textual analysis necessitates the adoption of precise scientific methodologies capable of uncovering hidden meanings and highlighting profound connotations. Given that this study focuses on the Qur'anic religious discourse—an undeniably eloquent and miraculous text in both its language and meaning، rich in its truths، secrets، eloquence، and rhetorical depth—it is essential to benefit from stylistic analysis، a field described by critic Salah Fadl as a branch of the young humanities. By employing the methodological steps of stylistic analysis، this study aims to examine selected verses of the Qur'an، identify their artistic features، and explore aspects of their unique aesthetic inimitability. This approach is particularly suitable for such studies due to its ability to penetrate the textual world and reveal its artistic and miraculous dimensions.

This paper، titled Analyzing Religious Discourse: A Stylistic Study of Surah Al-Waqi'ah، applies a stylistic approach to the study of miraculous Qur'anic discourse، It specifically examines Surah Al-Waqi'ah by adhering to the principles of stylistic methodology and employing its analytical tools. The study will focus on three levels of analysis: the phonetic level، the syntactic or structural level، and the rhetorical level.

keywords: Religions discourse - Levels of analysis - Stylistic methodology - Approach.

مقدّمة:

يقتضي تحليلُ نصٍّ شامخٍ، اعتماد منهج رصين، مستوٍ على سوقه، قادر على مطاردة معانيه، ومحاصرة دلالاته العصيّة، والإنصات إلى أناه العميقة. ولمّا كان الاختيار قد وقع على الخطاب القرآنيّ وهو نصّ باذخ -لامحالة - معجز من جهة لفظه ومعناه، كلام إلهيّ، أنزله ربّ العالمين «في أوجز لفظ، وأعجز أسلوب، فأعيت بلاغته البلغاء، وأعجزت حكمته الحكماء، وأبكمت فصاحته الخطباء... هو الكلام الجزل، الفصل الّذي ليس بالهزْل، سراج لا يخبو ضياؤه، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه، وبحر لا يدرك غوره، بهرت بلاغته العقول»[١]، حتّى أمسى -بهذا الثّقل الفنّيّ- مع كرور الأزمان رؤىً مضيئة، على طريق الإعجاز، والفرادة، والبيان، والحكمة، وفصل الخطاب.

لا بدّ -إذًا- من الإفادة من منهج علميّ دقيق يتناسب وطبيعةَ الخطاب الدّينيّ، وله القدرة على مقاربته؛ لذلك وُلِّيَتِ الوجهة صوب الدّرس الأسلوبيّ -الّذي يُعَدُّ فرعًا من العلوم الإنسانيّة الشّابّة على حسب تعبير صلاح فضل- للتّوسل بخطوات منهجه، في تحليل بعض آي القرآن الكريم، ورصد سماتها الفنّيّة، واستنطاق بعض ملامح إعجازها الجماليّ الفذّ، ذلك أنّ هذا المنهج هو الأليق بمثل هذه الدّراسات، لِمَا يمتلك من قدرة نفّاذة على اختراق عالم النّصّ، ومداهمة المعاني الهائمة في أتون العبارات، والقبض على تلابيب الجماليّات المترسّبة في أعماق التّراكيب، أو العالقة في حوايا الكلمات.

تروم هذه الورقة الموسومة «تحليل الخطاب الدّينيّ، سورة الواقعة (أنموذجًا)، دراسة أسلوبيّة» الإجابة عن السّؤالين الآتيين: الأسلوبيّة وسؤال المنهج، كيف تُتَرْجَمُ المرجِعيّة النّظريّة إلى الممارسة النّصّيّة؟ كيف يمكن تطبيق المقاربة الأسلوبيّة، الوصول إلى أغوار النّصّ القرآنيّ، وإدراك سَمْتِه البيانيّ الخاصّ به؟

إذ ستُعنَى بدراسة سورة الواقعة، باقتفاء روح المنهج الأسلوبيّ، واحترام آليّات مقاربته؛ وذلك باتّباع مستويات التّحليل الآتية:

- بعد مقدّمة، ومهاد نظريّ مقتضب يُعرِّف بالأسلوبيّة، ستدرس المستوى الصّوتيّ في سورة الواقعة.
- ثمّ المستوى النّحويّ أو التّركيبيّ.
- فالمستوى البيانيّ.
- وستقفوهم جميعًا خاتمة.

أوّلًا: مهاد في مفهوم الأسلوبيّة:

من المقدّمات الممهّدات الّتي ينبغي سَوقها بين يدَي هذه الدّراسة هي اكتناه مفهوم الأسلوبيّة؛ فقد جرى في عرف النّقاد والدّارسين أنْ يُقرِنَ لفظ الأسلوب بالمبدع؛ ذلك أنّ لكلّ منشئٍ أثرٍ أدبيّ أسلوبه الخاصّ، يتفرّد به عمّا سواه؛ وهذه الخصوصيّة هي الّتي تمارس فعل التّأثير في المتلقّي؛ لذلك يُعدّ الأسلوب مصدرًا مهمًّا من مصادر التّأثير الأدبيّ؛ لأنّه «يتكوّن من تأسيس نمط معيّن من الانتظام اللّغويّ الّذي يؤدّي إلى إثارة توقّعات لدى القارئ»[٢]، وعلى قدر البراعة في نسج هذا الانتظام اللّغويّ تكون الدّهشة، يقول أحمد الشّايب في تعريف الأسلوب: إنّه «اختيار الأديب للمعاني وترتيبها وتفسيرها، طوع مزاجه تفسيرًا فنّيًّا، ثمّ التّعبير عنها بالألفاظ الّتي تجذبها المعاني، فيأخذ الكاتب باختيار الفنّ، وينتهي بالألفاظ، فيجمع الأسلوب بين وضوح التّفكير وجمال التّصوير، مع مراعاة الدّقّة في أداء الفكرة أو صوغ الخيال، والتّصرّف السّديد في بناء الجمل والعبارات، حتّى تكونَ العبارة صورة صادقة لِمَا في نفسه من المعاني»[٣]، فالأسلوب انطلاقًا من هذا التّعريف الدّقيق هو البصمة الخاصّة الّتي يتمايز بها فرسان البيان، وأمراء الكلمة، عن بعضهم بعضًا، والمضمار الحقيقيّ الّذي يولد فيه، وينمو، ويتناسل، هو عالم النّصّ، لاشتماله على عمليّات لغويّة يتضافر بعضها برقاب بعض، فتنشأ عن هذا التّضافر جماليّات

النّصّ، ولذاذة المعاني؛ لذلك «يذهب الأسلوبيّون والنّقّاد الألسنيّون إلى أنّ الأسلوب ظاهرة تلازم تحقّق العمليّة اللّغويّة، المحكيّة منها أو المكتوبة، وأنّها بنتيجة تجذّرها في التّعبير الإنسانيّ تتكشّف بَدءًا من مستوى الجملة وتراكيبها المختلفة، كما في أحوال الاستفهام، والتّعجّب، والتّهكّم، والسّخريّة، وغيرها، وهي الّتي تترك طابعها على القول، إلّا أنّ مجالها الحقيقيّ هو النّصّ، وهو الّذي يتّسع لمقاصد البثّ اللّغويّ كما يتّسع للتّفنّن في الكتابة، فيكشف عن فرادة صاحبه؛ الأمر الّذي رجّح عند المنظّرين كون الأسلوب طريقة خاصّة للباثّ للخطاب اللّغويّ، وخاصّة الكاتب والأديب في التّعبير عن نفسه»[٤].

بَيدَ أنّ للأسلوب خصيصةً متميّزةً تتمثّل في كونه كتلة من الجمال يتذوّقها المتلقّي من أوّل وهلة دون أنْ يدركَ مأْتاها؛ ذلك لأنّ «الأسلوب أشبه بنفحة الزّهر القادمة من الطّبيعة، يتمّ التّمتع بها دون أنْ يُلتمَسَ لها بالضّرورة معنًى»[٥]، وهنا يأتي دور الدّراسة الأسلوبيّة الّتي تضطلع بمهمّة تتّبع هذه اللّمسات الخاصّة، للوقوف عند ما يمتاز به كلّ منشئ عن غيره، وتنقب عن سماته الأسلوبيّة البارزة الّتي تمارس تأثيرها المباشر على المتلقّي؛ إذ يمارس المحلّل الأسلوبيّ «بتأشير البنى الأسلوبيّة؛ أي: البنى اللّسانيّة الّتي تخلق توترا أو بروزا في النّص، وتمارس ضغطا على القارئ وتأثيرًا فيه، وغالبًا ما يُستعان بإحصاء في هذا العمل الّذي يقيس متوسّط الانزياحات في النّصّ عن قوانين الصّوت أو التّركيب أو الدلالة»[٦]، ويتطفّل على معاني النّصّ

ودلالاته، ويحلّ فيها حلولًا صوفيًّا، ليكشفَ طبيعتها العصيّة، ويقود المطاردة وهو متوسّل بأدوات منهجيّة، وآليّات دقيقة، لاستكناه مكوّناته الدّاخليّة، واستيعاب شروطه التّداوليّة، ملتزمًا بالثّوابت الّتي تحكم جوهر التّحليل الأسلوبيّ وتحدّده، المتمثّلة في الانطلاق «من الظّاهرة اللّغويّة الخاصّة ومن مختلف موادّ البناء والأداء في الكلام عامّة، وتركيز النّظر في كيفيّات التّعبير المفصحة عن صور الشّعور والتّفكير؛ سواء ما تعلق بالمفردة أو التّركيب أو بالصّوت أو بالمعنى أو بالصّيغة أو الدّلالة، أو بالحركة أو الصّورة، أو بنوع النّصّ أو شكله، أو بجنس الكتابة أو غرضها، ويكون الاعتماد في جميع ذلك على الظّواهر الموظّفة توظيفًا جديدًا لا على الظّواهر المستعملة استعمالًا عاديًّا، طبقًا لأوضاع اللّغة وتقاليد الكتابة المألوفة من قواعد التّواصل»[٧]، ويبقى للنّصّ مع ذلك سلطته، وتخومه وأبوابه الّتي ينبغي أنْ تطرَقَ عدَة مرّات من طرف الأسلوبيّ، ويطلب الاستئذان حتّى تنفتحَ في تَوْءُدة واستحياء، لتأذن له بتصيّد أثرها الجماليّ تصيّدًا أسلوبيًّا، ولن يتأتّى له ذلك إلّا إذا تسلّح بضروب من الثّقافات اللّغويّة والذّوقيّة.

وستبقى الغاية من هذه المقاربة الأسلوبية في الأخير، هي تحقيق مبتغًى واحد يكمن في إدراك جوهر النّصّ، والوقوف عند أسرار جماله، ودلائل سحره.

ثانيا: تحليل سورة الواقعة

أ – بين يدَي سورة الواقعة:

سورة الواقعة «مكّيّة وآياتها ستّ وتسعون»[٨]، تناولت حديثًا عن وصف يوم القيامة وأهواله وأحواله، وقد «سُمِّيت بذلك لتحقق كونها ووجودها»[٩]؛ فوقوعها لا بدّ منه، ولا رجعة فيه، أو ارتداد عنه؛ حينها يرفعُ الله تعالى أقوامًا منازلَ، ويضع آخرين إلى الدّركات، وعنذئذٍ تُحرَّك الأرض تحريكًا شديدًا حتّى ينهدمَ ما عليها من جبل وبناء، وتُفتّت الجبال فتًّا، فترى النّاس ثلاثة أصناف، أصحاب الدّرجة السّنيّة الّذين يُؤتون صحائفهم بأيمانهم، وأصحاب الدّرجة الدّنيّة الّذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم، وصنف ثالث من السّابقين الّذين سارعوا إلى مرضاة الله عزّ وجلّ؛ فقرُبت درجاتهم في الجنّة من العرش، وأعليت مراتبهم، وهم ثلّة من متقدّمي الأمّة وقليل من متأخّريها[١٠]، ثمّ شرع الله تعالى في وصف أنواع الثّواب الّذي سينعم به أهل الميمنة في الجنّة، وكذا أصناف العقاب، وسوء المصير الّذي سيؤول إليه أهل المشأمة في النّار، ذاكرا تعالى مبدأ الخلق، مشيرًا إلى عظيم سلطانه، وجلال قدرته، ليعود في آخر آيّ السّورة إلى تأكيد جزاء الأقسام الثّلاثة يوم القيامة، ما بين رَوْح، واستراحة، ورزق للمقرَّبين، وسلام لأصحاب اليمين، وتصْلية جحيم للمكذّبين الضّالين.

وأوّل لطيفة تلفت الانتباه من لطائف سورة الواقعة، هي وجود ارتباط ومناسبة في المعنى بينها وبين سورة الرّحمن الّتي تقدّمتها، وكذا سورة الحديد الّتي تلتها؛ فأمّا تعلّقها بما قبلها «فذلك من وجوه أحدها: أنّ تلك السّورة مشتملة على تعديد النّعم على الإنسان ومطالبته بالشّكر كما مرّ، وهذه السّورة مشتملة على ذكر الجزاء بالخير لمن شكر، وبالشّرّ لمن كذب وكفر، ثانيها: أنّ تلك السّورة متضمّنة للتّنبيهات بذكر الآلاء في حقّ العباد، وهذه السّورة كذلك لذكر الجزاء في حقّهم يوم التّناد، ثالثها: أنّ تلك السّورة سورة إظهار الرّحمة وهذه السّورة سورة إظهار الهيبة على عكس تلك السّورة مع ما قبلها، وأمّا تعلّق الأوّل بالآخر ففي آخر تلك السّورة إشارة إلى الصّفات من باب النّفي والإثبات، وفي أوّل هذه السّورة إلى القيامة، وإلى ما فيها من المثوبات والعقوبات؛ وكلٌّ واحد منهما يدلّ على علوّ اسمه، وعظمة شأنه، وكمال قدرته، وعزّ سلطانه»(١١)، وأمّا تعلّقها بما بعدها فيتجلّى في افتتاح سورة الحديد بالتّسبيح المناسب «لختام سورة الواقعة من الأمر به»(١٢)؛ إذ يقول تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾(١٣) في آخر الواقعة، ويقول في أوّل سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١٤)؛ فالمناسبة بينهما لا تَخفى حين أُجيب عن فعل الأمر بالتّسبيح، الّذي جرى بنحو من الاستعلاء مع الإلزام، بفعلٍ آخرَ أُجْرِي في الزّمن الماضي من طرف جماعة من الفاعلين المعمِّرين السّماوات والأرض؛ ملبّين الأمرَ بالطّاعة والامتثال.

ومعرفة المناسبة بين الآيات والسّور له فائدة جمّة في إدراك التّرابط المعنويّ الّذي يسهم في استيعاب مضامينه، ودلالاته، وتشريعاته، وأوامره، ونواهيه، وزواجره...

وقد عَدّ مفسّرو القرآن الكريم هذه المناسبة علمًا من العلوم العظيمة والدّقيقة، الّتي ينبغي أنْ يتوسّلَ بها الشّرّاح في تفاسيرهم حتّى تعينَهم على الوصول إلى أسرار معانيه، وإعجازه، قال صاحب البرهان في ذلك: «واعلم أنّ المناسبة علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول والمناسبة في اللّغة المقاربة وفلان يناسب فلانًا؛ أيْ: يقرب منه ويشاكله... ولهذا قيل المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقّته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها؛ والله تعالى أعلم إلى معًنى ما رابط بينهما عامّ أو خاصّ، عقليّ أو حسّيّ أو خياليّ وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التّلازم الذّهنيّ؛ كالسّبب والمسبّب والعلّة والمعلول والنّظيرين والضّدّين ونحوه»[١٥]، وفائدته تكمن في اتّساق معاني القرآن الكريم كلّه، وانتظام مبانيه، وجَعْل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التّأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»[١٦]؛ فمن محاسن الكلام ارتباط بعضه ببعض في سبيكة موضوعيّة واحدة، وقد صرّح الرّازيّ في تفسيره بأنّ «أكثر لطائف القرآن مُودَعَة في الترتيبات والرّوابط»[١٧].

ب – ظواهر أسلوبيّة في سورة الواقعة:

للنّصّ القرآنيّ خصوصيّته المتفرّدة عمّا سواه، وسمْتُه الأسلوبيّ والفنّيّ المعجز؛ فهو إضافة إلى كونه كلامًا ربّانيًّا من الله تعالى إلى عباده، هو معجزة نبيّ حاجَّ بها قومَه، وأقام بها الدّليل على نبوّته، فكما جعل الله لموسى عليه السلام معجزة العصا الّتي تتحوّل إلى أفعى، وفلق البحر، واليد الّتي تخرج بيضاء من غير سوء، في قومه الّذين يقيمون وزنًا للسّحر والسّحرة والنّبوءات، وجعل معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى، وخلق الطّير بإذن الله، والمشي فوق الماء، وإبراء الأكمَه والأبرص، كذلك جعل لنبيّه محمّد صلى الله عليه وسلم معجزة القرآن الكريم الّذي هو كلام معجز في لفظه، ومعناه، وبنائه، وصوره، وبيانه... يفوق كلّ أجناس القول الشّعريّة منها والنّثريّة، في قوم يمتلكون ناصية اللّغة، ويقدّسون الشّعر ويحتفون بالكلمة البليغة، فكانت معجزته من جنس ما يؤمن به قومه القرشيّون؛ لكنّها فاقت ما تفتّقت به قرائحهم، وجادت به بلاغتهم مهما سمُقَ باعهم في أفانين القول، لذلك لا يعرف فضل القرآن الكريم إلّا «من كَثُر نظره، واتّسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللّغات؛ فإنّه ليس في الأمم أمّة أوتيت من العارضة والبيان واتّساع المجال ما أوتيته العرب»(١٨).

وسورة الواقعة كسائر سور القرآن الكريم لا نعدم فيها ضروبًا من التّفرّد النّظميّ العجيب، وألوانًا من التّفوّق الأسلوبيّ المخالف لأنواع الصّناعة الّتي يعرفها الشّعراء، والبلغاء، والفصحاء، ويمكن رصد ذلك بالمستويات الآتية:

المستوى الصّوتيّ:

عرّف ابن فارس الصّوت في مقاييسه بقوله: «الصّاد والواو والتّاء أصل صحيح، وهو الصّوت، وهو جنس لكلّ ما وقر في أذن السّامع، يقال هذا صوت زيد، ورجل صيت، إذا كان شديد الصّوت، وصائت إذا صاح، والصّيت: الذّكر الحسن في النّاس»[١٩]، وفي الاصطلاح عرفه صاحب التّعريفات بأنّه: «كلّ لفظ حُكِي به صوت»[٢٠]، وعرفه الأحمد النّكريّ بقوله: «الصّوت: هواء متموّج بتصادم جسمين، وقيل كيفيّة قائمة بالهواء الّذي يحملها على الصّماخ»[٢١]، أمّا رمضان عبد الله فقد عرف الصّوت اللّغويّ: «بأنّه أثر سمعيّ يصدر طواعية واختيارًا عن تلك الأعضاء المسمّاة تجاوزًا أعضاء النّطق، ويتطلّب الصّوت اللّغويّ وضع أعضاء النّطق في أوضاع معيّنة أو تحريك هذه الأعضاء بطرق ممدّدة؛ وهذا يعني أنّ المتكلّم لا بدّ أنْ يبذلَ مجهودًا حتّى يحصلَ على الأصوات اللّغويّة، وبعبارة أخرى نقول إنّ الصّوت اللّغويّ هو الأثر السّمعيّ المقصود الهادف الصّادر عن أعضاء نطق الإنسان»[٢٢].

يستنتج من مجموع هذه التّعاريف أنّ الصّوت يصدر عن أعضاء النّطق بكيفيّة مخصوصة؛ لينعكسَ على أذن السّامع ويُحدِثَ فيها أثرًا معينًا، والصّوت على هذا يدخل في علاقة مع أصوات أخرى لتتركّبَ الكلمة الدّالّة على معنًى، وهي الّتي تختلف عن غيرها باختلاف حروفها وأصواتها؛ فالصّوت «هو آلة اللّفظ، والجوهر الّذي يقوم به التّقطيع، وبه يوجد التّأليف، ولنْ تكونَ

حركات اللّسان لفظًا، ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا، إلّا بظهور الصّوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلّا بالتّقطيع والتّأليف»[٢٣].

وما يميّز الصّوت القرآنيّ هو دوره المهمّ في التّأثير في النّفوس، وتكشيف المعنى؛ ذلك لما له من علاقة وطيدة بدلالة اللّفظة؛ إذ يساهم في تصوير المعاني، ورسم المشاهد، وعرض المواقف الإنسانيّة، بشحنات إيقاعيّة، وأجراس نغميّة، تضفي على النّصّ طاقات نفسيّة مؤثّرة على المعنى؛ فكلّ صوت إلّا ووضع في المكان المناسب له بإحكام مطلق، وسبك متناهٍ.

وسنرصد مثالًا له في سورة الواقعة على النّحو الآتي:

- التّكاثف الصّوتيّ للقاف:

يشكّل صوت القاف في سورة الواقعة ملمحًا أسلوبيًّا مميّزًا؛ فقد تكرّر (٣٥) مرّة بحسب ما كشفت عنه عمليّة الإحصاء، وهو تكرار ضئيل مقارنة مع حضور بعض الأصوات الأخرى، كصوت النّون الّذي تكرّر(٢٠١) مرّة، وصوت الهمزة الّذي تكرّر (١١١) مرّة، لكن وقعه عظيم؛ فهو من الأصوات المجهورة الشّديدة، ورد مضمومًا، ومنصوبًا، ومجرورًا، وساكنًا، ومنوّنًا، يطالعنا في أوّل فواتح السّورة عند قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾[٢٤]؛ إذ يلفت الانتباه هذا التّلاؤم الوثيق بين طبيعة الصّوت ومعنى الآية، فهو من الأصوات الانفجاريّة، والآية تكتنه في

طيّاتها معنى الانفجار العظيم الّذي يُحْدِث صوتًا مسموعًا جبّارًا؛ ذلك أنّ الواقعة الّتي هي القيامة أمر «حادث واقع لا مجال لكذبه ولا لتكذيبه، ﴿إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾، ولفظة «الواقعة» بما فيها من مدّ، ثمّ سكون أشبه بسقوط الجسم الّذي يُرفع، ثمّ يترك فيهوي واقعًا، فينتظر له الحسّ فرقعة ورجّة، وهكذا يلبّي السّياق ما يتوقّعه الحسّ؛ فهي «خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ» تلك الأرجحة الّتي يحدثها سقوط الأجسام الثّقيلة تحدثها كذلك «الواقعة» كما توقّعها في عالم المعاني، يوم تشيل أقدار وتهوي أقدار...»[٢٥]، إذ يُظهر هذا التّوصيف المادّيّ لمشهد يوم القيامة مدى اندغام ما هو صوتيّ فيما هو دلاليّ؛ فالرّجّ، والهدم، والسّقوط، والتّهاوي يصدر عنهم صوت يتلاءم مع طبيعة صوت القاف الشّديد، الصّاخب، كما أنّ الأصوات المُؤلّفة لِلَفظة «الواقعة» نفسها تعكس اتّساقًا خطرًا بين الصّوت والمعنى؛ إذ ينفتح الفم عند التّلفّظ بصوت الواو المفتوحة مستندًا إلى ما يتيحه صوت الألف من مدّ للصّوت، وتمطيط للنّبر؛ لينغلقَ بعد ذلك مع صوت القاف المكسور، عاكسًا بذلك المشهد الرّهيب ليوم القيامة؛ إذ سيهوى ما كان عاليًا، ويحدث انفجارًا مذويًّا، حين ذاك سينخفض من ينخفض، ويرتفع من يرتفع أيْ: سيحصل «عندها خفض أقوام كانوا مرتفعين، ورفع أقوام كانوا منخفضين؛ وذلك بخفض الجبابرة والمفسدين الّذين كانوا في الدّنيا في رفعة وسيادة، وبرفع الصّالحين الّذين كانوا في الدّنيا لا يعبأون بأكثرهم، وهي أيضًا خافضة جهات

كانت مرتفعة كالجبال والصّوامع، رافعة ما كان منخفضًا بسبب الانقلاب بالرّجّات الأرضيّة»[٢٦]، وجماليّة التّصوير الكامنة في لفظة (الواقعة) «تعتمد على هذا المدّ الطّويل قبل القاف؛ ممّا يبعث على تصوّر وقوع جسم بعد ارتفاعه، ونظرة قطب لا تخلو من إثارة هذا التّصوّر، على الرّغم من أنّ (واقعة) نفسها تدلّ على السّقوط»[٢٧].

فالخفض والرّفع يجسّدان مشهد الواقعة، وينسجمان مع الشّحنة النّغميّة لصوت القاف، وهذه قِمّة البلاغة حين تُمسك الأصوات، والمعاني، والدّلالات برقاب بعض، لتتمثّلَ الصّورةُ -بهذا التّعالق- في ذهن المتلقّي بجلاء وانكشاف مطبق.

هذا الاتّساق نفسه تكتنزُهُ لفظة «الزّقّوم» الواردة في قوله تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾[٢٨]، في سياق حديثه تعالى عمّا ينتظر المكذّبين بيوم القيامة من أهل الشّمال، «ونحن لا ندري ما شجر الزّقوم، ولكن اللّفظ نفسه يصوّر بجرسه ملمسًا خشنًا شائكًا مُدَبَّبًا يمزّق الأيدي؛ وذلك في مقابل السّدر المخضود الّذي لا شوك فيه، ومع هذا فإنّهم لآكلون من هذه الشّجرة الشّائكة «فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ» فالجوع كافر والمحنة غالبة»[٢٩]؛ فما بالك بالحلوق اللّيّنة كيف ستقوى على ابتلاع ما كان خشنًا شائكًا، والزّقوم بحسب ما ورد في معاجم اللّغة؛ هو: «كلّ طعام يقتل»[٣٠]، وهو ملعون استنادًا إلى ما جاء في «قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ (الإسراء: ٦٠)، قال ثعلب

يعني شجرة الزّقّوم، قيل أراد الملعون آكلها»[٣١]، وهو فوق هذا كريه الطّعم، بحسب ما أورده الرّاغب في مفرداته؛ فقال: «إنّ شجرة الزّقوم عبارة عن أطعمة كريهة في النّار، ومنه استعير زقم فلان وتزقّم إذا ابتلع شيئًا كريهًا»[٣٢].

إنّ طبيعة هذا الطّعام المكوّنة من مجموع هذه الخصائص، تتناسب مع قوّة صوت القاف المضعّف الشّديد، كما تتناسب مع كيفيّة التّلفّظ بأصوات هذه اللّفظة؛ إذ إنّ «الوقوف على الميم الّذي (تنطبق الشّفتان انطباقًا تامًّا عند النّطق به، فيُحبس الهواء حَبْسًا تامًّا في الفم)، وهذا الحبس يلائم اختناق آكل هذا الطّعام، وانسداد حلقومه، ويلائم القاف معالجة اللّقمة غير السّائغة بشدّته وتكرّره»[٣٣]؛ فالوشائج بين الصّوت والمعنى لا تكاد تَخفى؛ إذ إنّ الإيقاع الّذي تُحدِثه لفظة (الزّقوم)؛ وهي تقف في عمق الحَنجرة، يحمل جرس الزّقزقة المنبعث من انتهائها بمدّ وسكون في الميم، والميم من حروف الشّفة؛ وذلك إيحاء بعدم استساغة النّفس لهضمها؛ ولكنّها من شدّة حرقة ووخز الزّقوم[٣٤]، وما كان يمكن أنْ يتلاءمَ هذا المعنى مع غير صوت القاف الشّديد الغليظ القاسي.

إنّ تدبّر هذا الاتّساق والالتحام الّذي يفيض به النّصّ القرآنيّ من جهة صوت لفظه ومعناه، لبرهان قاطع على تفرّده؛ فالآيات الكريمات السّابقات صوّرت لنا مشهد يوم القيامة، وطعام أهل النّار بفنّيّة مطلقة؛ إذ شخّصت الأحداث، وجسّمت المعنويّات، وبثّت فيهم الحركة، والتّحوّل، والتّغيّر؛

«فإذا ما ذكرنا أنّ الأداة الّتي تصوّر المعنى الذّهنيّ والحالة النّفسيّة، وتشخّص النّموذج الإنسانيّ أو الحادث المرويّ، إنّما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصوّر، ولا شخوص تعبّر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللّون من تعبير القرآن»(٣٥).

إنّ الوقوف عند التّكاثف الصّوتيّ للقاف في سورة الواقعة جعلنا نلمس روعة اللّفظ القرآنيّ وما فيه من جمال، وفنّ تصوير، وقوّة حركة، ومحاكاة، وإثارة...، ونُوقِن بما للأصوات والألفاظ من قدرات على الحلول محلّ ريشة الفنّان لتصوّر لنا أهوال المشاهد، وجسام الأحداث، بألوانها، وتموّجاتها، ودقائقها حتّى تخترقَ المخيال وتؤثّر في الوجدان.

- المستوى التّركيبيّ (النّحويّ):

للنّحو دور مهمّ في إنتاج المعنى، وتكشيف الدّلالة؛ إضافةً إلى تقويم اللّسان من الخطأ وصيانته من الخطل؛ وذلك بتوخّي قانونه في الكلام. فهو «علم بقوانين يعرف بها أحوال التّراكيب العربيّة من الإعراب والبناء وغيرهما، وقيل النّحو علم يعرف به أحوال الكلم من حيث الإعلال، وقيل علم بأصول يعرف بها صحّة الكلام وفساده»(٣٦)، وله مباحثُ كثيرةٌ ومتعدّدة، سنرصد أحد تجلّياته في سورة الواقعة بحضور ثنائيّتَي التّعريف والتّنكير.

أ- التّعريف:

لا شكّ أنّ اقتران اللّفظة بـ (أل) التّعريف يكسبها دلالات أسلوبيّة تختلف عن النّكرة؛ فكلّ زيادة في المبنى إلّا وتفيد زيادة في المعنى، وحظّ سورة الواقعة من التّعريف والتّنكير وافر؛ فإذا أخذنا أولى الكلمات المُعرّفة الواردة فيها، من قبيل: (الواقعة، الأرض، الجبال، الميمنة، المشأمة، السّابقون، المقربون، الأولين، الآخرين...)، وجدناها تدلّ على أشياءَ معيّنةٍ، يتمثّلها العقل، ويدركها الذّهن، لوجود نوع من الألفة معها. فالواقعة اسم من أسماء يوم القيامة، وقد «جُعِل هذا الوصف علمًا لها بالغلبة في اصطلاح القرآن الكريم»[٣٧] كالحاقّة، والطّامّة، والتّغابن، لا يغيب عن ذهن كلّ مؤمن بيوم الحساب، وهو يوم عسير على الكافرين، فيه ستحدث تغيّرات جذريّة في الكون بأسره، وستُرى فيه أهوال، وغرائب؛ لذلك تقدّمها الظّرف (إذا) المتضمّن لمعنى الشّرط ليُنبِئَ بنوع من التّوجّس والتّرقّب لما «بعد هذا الشّرط الزّمانيّ مع ما في الاسم المسند إليه من التّهويل بتوقّع حدث عظيم يحدث»[٣٨].

والأرض والجبال أمران مادّيّان، حسّيّان يعرفهما الإنسان ويعيش في كنفهما؛ والأمر نفسه في ما يخصّ سائر المصطلحات الّتي تفيد دلالة على جهة اليمين، والشّمال، والقرب، والأوّل، والآخر؛ فمعانيها مستقرّة في الأذهان، معروفة لدى المخاطَبين غير خافية عليهم. بَيدَ أنّ تعريفها أكسبها نوعًا من التّعظيم، والتّفخيم، والتّهويل من أمرها. وقد تلوّنت أشكال التّعريف في السّورة، ما بين:

- **تعريف بالاقتران ب (أل)**: وقد تقدّم شاهده.

- **وتعريف بالإضافة**: نحو قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾[٣٩]، ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾[٤٠]؛ إذ أكسبت الإضافة التّركيبين دلالة على الاختصاص الّذي يفيد تصنيف النّاس يوم القيامة إلى فرقٍ ومراتبَ، واختلاف الجزاء والثّواب تبعًا لذلك.

كما وردت الإضافة لإقرار الرّبوبيّة لله تعالى وحده لا شريك له في قوله عزّ وجلّ: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤١]، في سياق حديثه عن مصدر نزول القرآن الكريم ونسبته إليه تعالى.

ووردت أيضًا في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[٤٢] فقد اشتملت الآية الكريمة على إضافتين مترادفتين، اختصّت كلّ واحدة بمعنًى معيّن؛ فإضافة (اسم) إلى (ربّك) أفادت معنى التّبرّك والانتساب إلى الله تعالى، قال صاحب التّحرير والتّنوير في تفسير الآية: «والخلاصة أنّ كلّ مقام يقصد فيه التّيمّن والانتساب إلى الرّبّ الواحد، يعدّى الفعل إلى لفظ اسم الله تعالى... كقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أيْ: قل سبحان الله...وكلّ مقام يقصد فيه طلب التّيسير والعون من الله تعالى يعدّى الفعل المسؤول إلى علم الذّات باعتبار ما له من صفات الخلق والتّكوين»[٤٣]، وإضافة كاف المخاطب إلى لفظ (ربّ) أفادت الدّلالة على نوع من المواساة، والرّعاية الإلهيّة، والقرب من الله

تعالى، ولا سيّما أنّ الخطاب موجَّهٌ إلى محمّد ﷺ، وإلى المسلمين كافّة بعده، وأمّا لفظة (العظيم) فهي «صفة للمضاف أو المضاف إليه، والمعنى: أنّه لما ذكر ما دلّ على قدرته وإنعامه على عباده؛ قال: فأحدث التّسبيح وهو أنْ يقولَ: سبحان الله تعالى، إمّا تنزيهًا له عمّا يقول الظّالمون الّذين يجحدون وحدانيّته ويكفرون نعمته، وإمّا تعجّبًا من أمرهم في غمط آلائه وأياديه الظّاهرة، وإمّا شكرًا لله على النّعم الّتي عدّها ونبّه عليها»(٤٤)؛ فهذه غايات أمره تعالى بالتّسبيح.

- **وتعريف باسم الإشارة**: إذ يكتنز هذا الأخيرُ دلالاتٍ أسلوبيّةً متنوّعةً، من أمثلته قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(٤٥)؛ فقد دلّ اسم الإشارة (أولئك) على التّعظيم، وعلوّ المنزلة عند الله تعالى؛ ذلك أنّ المقرّبين؛ وهم المشار إليه، أحسن الفرق يوم القيامة جزاءً وثوابًا، كما أنّ تصدير ذكرهم باسم إشارة -دالّ على الجمع بنوعيه، ومقترن بلام البعد وكاف الخطاب- يومئ بسموّ مرتبتهم وبعدها عن متناول الآخرين، وبجذارتهم، واستحقاقهم لما سيُذكر بعد ذلك من ضروب النّعيم، وألوان المكافآت، بقوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ، مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ، وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ، لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ، وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾(٤٦).

- **وتعريف بالضّمير**: من فوائد الضّمير الاستغناء عن ذكر الأسماء والكلمات والاستعاضة به عنها تحرّيًا للاختصار والإيجاز، من أمثلته في سورة

الواقعة، قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ، لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾(٤٧)؛ فالضّمير المنفصل (أنتم) الدّالّ على الجمع المخاطب يفيد معنى التّحقير والتّقليل من الشّأن؛ لأنّه يعود على العبد الضّعيف الّذي لا يملك قدرة على تحميل المزن بالمطر وإنزاله إلى الأرض والعباد، والضّمير (نحن) الدّالّ على الجمع المتكلّم يفيد معنى التّعظيم والتّفخيم؛ لأنّه يعود على الله تعالى القادر على الخلق، بيده ملكوت كلّ شيء، ينزل الماء بقدرته حُلوًا سائغًا للشّرب ويغيث به العباد والأرض؛ ممّا يستوجب شكره وحمده على نعمه الّتي لا تُعَدّ لا تحصى، وقد ورد الضّميران معًا في سياق جملة استفهاميّة تَصدّرها حرفُ الاستفهام (الهمزة)؛ ليفيدَ معنى الاستنكار واستبعاد حصول الأمر؛ كلّ ذلك في قالب تخييريّ يكون الجواب عنه بتعيين واحد من الأمرين.

– **وتعريف بالاسم الموصول**: نحو قوله تعالى:﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الذي تَشْرَبُونَ، ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ، لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾(٤٨)، فـ (الذي) اسم موصول خاصّ ومبهم يحتاج إلى جملة صلة لإزالة الغموض عنه؛ وقد أفاد هنا معنى التّذكير بعظمته تعالى، وتأكيد نعمه، وأفضاله الّتي تستوجب الشّكر والثّناء المتواصلين؛ فمن آلائه العظمى إنزال الماء العذب السّلسبيل الصّالح للشّرب من السّحاب الأبيض، ولو شاء تعالى لجعله شديد الملوحة لا تستسيغه الحلوق. ومن الدّقائق اللّطيفة المبثوثة في هذه الآيات حذف لام التّوكيد من الفعل (جعلناه) بعدما اقترنت به فيما تقدّم من

قوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[٤٩]؛ فلِمَ أدخلت اللّام على جواب (لو) في الآية الأولى وحذفت في الثّانية؟ الحقيقة أنّ ذلك يُعزى إلى أربعة أوجه: «أحدها أنّ صيرورة الماء ملحًا أسهل وأكثر من جعل الحرث حطامًا؛ إذ الماء العذب يمرّ بالأرض السّبخة فيصير ملحًا؛ فالتّوعّد به لا يحتاج إلى تأكيد؛ وهذا كما أنّ الإنسان إذا توعّد عبده بالضّرب بعصا ونحوه لم يحتج إلى توكيد، وإذا توعّد بالقتل احتاج إلى تأكيد، والثّاني: أنّ جعل الحرث حطامًا قلب للمادّة والصّورة، وجعل الماء أجاجًا قلب للكيفيّة فقط؛ وهو أسهل وأيسر»[٥٠]؛ فالأمران معًا لا يشكّ المخاطب في سهولتهما ولا ينكر عدم صعوبتهما فعلًا وكيفًا؛ لذلك خلا الوعيد بهما من أيّ مؤكّد.

والثّالث: «أنّ (لو) لما كانت داخلة على جملتين معلّقة ثانيتهما بالأولى تعليق الجزاء بالشّرط، أُتِي باللّام علمًا على ذلك، ثمّ حذف الثّاني للعلم بها؛ لأنّ الشّيء إذا عُلِم وشهر موقعه وصار مألوفًا ومأنوسًا به لم يبالِ بإسقاطه عن اللّفظ استغناء بمعرفة السّامع، ويساوي لشهرته حذفه وإثباته مع ما في حذفه من خفة اللّفظ ورشاقته»[٥١]؛ فقصر المسافة بينهما أغنى عن إعادة ذكرها إيجازًا واختصارًا.

والرّابع: «أنّ هذه اللّام مفيدة معنى التّوكيد لامحالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب، للدّلالة على أنّ أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب»[٥٢]،

فالتّوعّد بفقد الطّعام أشدّ من فقد الماء، رغم أنّ الماء هو أساس الحياة، ولعلّ هذا ما يفسّر تقديم الطّعام قبل الشّراب عند بعضهم؛ لذلك حذف في الثّانية لانتفاء احتياجها إلى تأكيد. ولا يخفى ما في هذا الحذف والذّكر من نكات بديعة، ولطائف دقيقة، تكشف وجهًا آخر من الأسرار الجماليّة في النّصّ القرآنيّ.

ب – التّنكير:

ما يميّز التّنكير في آيّ هذه السّورة العظيمة هو ارتباطه بمفردات مجهولة لدى المخاطبين، ولا غرابة في ذلك مادامت النّكرات تدلّ على شيء غير معيّن، بيد أنّها في السّورة ارتبطت بأسماء تبدو ظاهريًّا مأنوسة الاستعمال، معروفة التّداول، غير أنّ الذّهن خالٍ من أيّ تمثّلٍ حقيقيّ لماهيّتها؛ ومن أمثلة ذلك حديثه عزّ وجلّ عن نعيم أهل الجنّة من المقرّبين، يقول تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ، وَكَأْسٍ من مَّعِينٍ، لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ، وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾(٥٣)؛ فلو استقرأنا معظم كلمات هذه الآيات لوجدناها نكرات (سرر، موضونة، متّكئين، متقابلين، ولدان، مخلّدون، أكواب، أباريق، كأس، معين، فاكهة، طير، حور، عين)، فهي نِعَم غيبيّة في علم الله تعالى وحده، وإنْ كانت أسماؤها تضاهي شبيهات، وضرائر لها في عالم المادّيّات المحسوسات، إلّا أنّنا في الحقيقة

لا نملك يقينًا بجوهرها؛ ففي الجنّة يوجد ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، كما أخبرنا الله تعالى على لسان نبيّه الكريم ﷺ، ممّا يؤكّد شدّة إعجاز النّصّ القرآنيّ فلا شيء فيه يرد مجّانيًّا، وإنّما زيادة التّعريف أو حذفه لا يكون إلّا في مواضَع مسبوكةٍ تخدم المعنى وتلبّي حاجات السّياق.

ولابدّ أنْ نشيرَ هنا إلى ما يوجد من وشائجَ وصِلاتٍ بين النّحو والبلاغة؛ فالتّعريف والتّنكير وإنْ كانا من مباحث علم النّحو، إلّا أنّهما لا يخلوانِ من دلالات بلاغيّة صرفة، ولا غرابة في ذلك فعلم المعاني الّذي يتبوّأ مقعد الصّدارة في بناء البلاغة العربيّة، باعتباره ركنًا مهمًّا في هرمها الثّلاثيّ، يتغذّى من علم النّحو، ويرتبط به ارتباطًا شديدًا؛ لذلك يُعَدّ عمادَ البلاغة الرّئيس، لِما له من أثر في تهذيب الأساليب وتقويمها، بسبب تداخله واختلاطه بعلم النّحو من جهة، ولكونه القواعد الّتي تعصم -إذا ما رُوعِيَت- من الوقوع في الخطأ، كما تُعِينُ على مطابقة الكلام لأحوال المُخاطَبين، وملاءمة المقامات الّتي قيل فيها من جهة ثانية. وقد تبيّن لنا ممّا تقدّم من شواهد التّعريف والتّنكير في سورة الواقعة، مدى تداخل ما هو نحويّ بما هو بلاغيّ وتمازجهما.

- المستوى البيانيّ:

إذا كان علم المعاني هو عماد البلاغة العربيّة؛ فالبيان هو عضُدها، وسرٌّ من أسرار جمالها وسحرها؛ إذ يُمَكِّن من تأدية المعنى الواحد بأساليبَ متنوّعةٍ،

وطرائقَ مختلفةٍ من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية...، فينكشف المعنى وينْجَلِي في الأذهان على وجه من الإجادة والافتنان والحسن.

ومدار البيان في اللّغة على معانٍ متعدّدة؛ من بينها:

- الفصاحة: جاء في معجم العين أنّ «البَيِّنَ من الرّجال: الفصيح»(٥٤)، وقال الأزهريّ في التّهذيب: «والبيان الفصاحة، كلام بَيِّنٌ: فصيح»(٥٥)، وجُلُّ معاجم اللّغة الّتي جاءت بعدهما، تناقلت هذا المعنى، وجعلت البيان مرادفًا للفصاحة.

أمّا في الاصطلاح فقد عرّفه الجرجانيّ بأنّه: «علم يُعرَف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدّلالة عليه»(٥٦).

وعرّفه جلال الدّين السّيوطيّ بقوله: «علم البيان: معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزّيادة في وضوح الدّلالة عليه والنّقصان، ليحترزَ بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»(٥٧).

وهكذا فقد اتّفقت جلّ معاجم الاصطلاح على تفسير البيان بالعلم الّذي يُمكِّن من إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة؛ وهو تعريف لم يخرج في ماهيّته عمّا حدّده الخطيب القزوينيّ في تلخيصه للمفتاح.

وأمّا عن العلاقة بين المعنى اللّغويّ للمادّة والمعنى الاصطلاحيّ فلا تكاد

تَخفى؛ لأنّ البيان في اللّغة يدلّ على الكشف والظّهور، وفي الاصطلاح يدلّ على كشف المعنى وإظهاره وتوضيحه بحيث يجعل المتلقّيَ يُفضي إلى حقيقته، ويصل إلى مكنونه، ويستوعب فحواه بسهولة؛ لأنّه يُتيح إمكانيّة أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة، من تشبيه واستعارة ومجاز... ومن بعدُ؛ فالمعنييانِ معًا يلتقيان في الدّلالة على الكشف والظّهور.

تنوّعت الصّور البيانيّة في سورة الواقعة ما بين تشبيه، واستعارة، وكناية...، ولضيق المقام سنقتصر على التّمثيل لذلك بالتّشبيه، الّذي هو أوّل مباحث علم البيان.

التّشبيه في اصطلاح علماء البيان؛ هو: «الدّلالة على اشتراك شيئين في وصف من أوصاف الشّيء في نفسه كالشّجاعة في الأسد، والنّور في الشّمس»(٥٨)، وهو عند جلال الدّين السّيوطيّ: «وصف الشّيء بمشاركته آخر في معنًى»(٥٩)، في حين عرّفه صاحب الكشّاف بأنّه: «الدّلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في معنًى، لا على وجه الاستعارة التّحقيقيّة والاستعارة بالكناية والتّجريد، وكثيرًا ما يطلق في اصطلاحهم على الكلام الدّالّ على المشاركة المذكورة أيضًا؛ فالأمر الأوّل هو المشبّه على صيغة اسم المفعول، والثّاني هو المشبّه به، والمعنى هو وجه الشّبه، والمتكلّم هو المشبّه على صيغة اسم الفاعل. قيل وينبغي أنْ يُزادَ فيه قولنا بالكاف ونحوه ليخرج عنه نحو: قَاتَلَ زيدٌ عَمْرًا، وجاءني زيدٌ وعَمْرٌو»(٦٠).

وبحسب ذكر أو حذف بعض أركان التّشبيه يتحدّد نوعه؛ وأوّل تشبيه يطالعنا في سورة الواقعة يكمن في قوله تعإلى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾[٦١]؛ وهو تشبيه بليغ حذفت فيه أداة التّشبيه، مع وجه الشّبه؛ إذ شَبّه الله تعإلى مشهد الجبال يوم القيامة؛ وقد بُسّت وارتجّت حتّى تفتّت، بالهباء المنبثّ، ووجه الشّبه كما يظهر بالمعنى هو: الانمحاء، والفناء، والزّوال. ذلك أنّ يوم القيامة هو يوم عسير تتبدّل فيه الأرض بفعل الوقوع، والارتطام، والارتجاج، فتصير الجبال بعدما كانت عتيدة شامخة هباءً منبثًّا، والهباء؛ هو: «دقاق التّراب وما نبت في الهواء فلا يبدو إلّا في أثناء ضوء الشّمس في الكُوّة»[٦٢]، والمنبثّ أي: المتفرّق والمنتشر، فيصيبها من الهدم والدّكّ ما يجعلها غبارًا دقيقًا لا يكاد يرى إلّا إذا سطعت عليه أشعّة الشّمس، وتراءى من خلال ضوئها؛ فتصير «شيئًا كلا شيء، لتفرّق أجزائها، وانبثاث جواهرها»[٦٣]، ولا يَخفى ما في هذا التّشبيه من دقّة في التّصوير، وتقريب للصّورة في الذّهن، ووصف لمشهدها بكيفيّة متناهية في الإتقان، والدّقّة؛ فضلًا عن حذف أداة التّشبيه الّذي لم يكن اعتباطيًّا، بل ليُجعل(المشبّه) هو نفسه (المشبّه به) الشّيء الّذي جعل التّشبيه أبلغ في استيفاء عناصر الصّورة، وأداء المعنى.

وللتّشبيه مراتبُ؛ أيْ: له درجاته في القوّة والضّعف باعتبار ذكر أركانه كلّها أو بعضها؛ وقد أجملها البلاغيّون في ثماني مراتبَ؛ هي:

«أحدها: ذكر الأربعة كقولك: زيد كالأسد في الشّجاعة.

وثانيتها: ترك المشبه كقولك: كالأسد في الشّجاعة؛ أيْ: زيد.

وثالثتها: ترك كلمة التّشبيه كقولك: زيد أسد في الشّجاعة.

ورابعتها: ترك المشبّه وكلمة التّشبيه كقولك: أسد في الشّجاعة؛ أيْ: زيد.

وخامستها: ترك وجه التّشبيه كقولك: زيد كالأسد.

وسادستها: ترك المشبّه ووجه الشّبه؛ كقولك: كالأسد؛ أيْ: زيد.

وسابعتها: ترك كلمة التّشبيه ووجهه كقولك: زيد أسد.

وثامنتها: إفراد المشبه به في الذّكر كقولك: أسد؛ أيْ: زيد»[٦٤].

يستخلص من مجموع هذه المراتب أنّ أركان التّشبيه الأربعة، يجوز حذف أحدها أو بعضها، باستثناء المشبّه به؛ فلا يُعقد التّشبيه من دونه، وقد صرّح صاحب «مفتاح تلخيص المفتاح» بذلك؛ فقال: «وإنّما انحصرت مراتب التّشبيه في الثّماني؛ لأنّه لمّا امتنع حذف أحد الأركان الأربعة وهو المشبّه به، دون الثّلاثة الباقية؛ فالمذكور إمّا كلّ الأربعة أو لا»[٦٥].

وأبلغ هذه المراتب وأفضلها على الإطلاق، المرتبة السّابعة، قال: «أعلى مراتبه هو ما حذف فيه وجه التّشبيه وأداته فقط؛ أيْ: دون المشبّه والمشبّه به»[٦٦]؛ أيْ: هو التّشبيه البليغ المبثوث في الآية الكريمة السّالفة.

تشبيه آخر نستلُّه من مشاهد نعيم أهل الجنة يتمثّل في قوله جلّ وعلا:

﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾(٦٧)، وهو تشبيه مجمل، حذف فيه وجه الشّبه؛ إذ شبّه الله تعالى نساء الجنّة اللّواتي يكافِئ بهنّ أهل الإحسان والعمل الصّالح، باللّؤلؤ المكنون؛ «لأنّه أصفى وأبعد من التّغيّر، وفي الحديث: (صفاؤهنّ كصفاء الدّرّ الذي لا تَمَسُّه الأيدي)»(٦٨)؛ فهو لؤلؤ مصون مستور في أصدافه، لم يتعرّض للتّغير بفعل المؤثّرات الخارجيّة من شمس وهواء. ووجه الشّبه كما يظهر هو الصّفاء، والنّقاء، والبياض؛ فضلًا عن الحسن، والبهاء كلّ هذه الصّفات مجتمعة يكشف عنها المعنى؛ فالحور فاتنات الحسن، مصونات لم يمسسهنّ إنس ولا جنّ، مصونات ومقصورات في الخيام كما ورد في القرآن الكريم.

وعدم ذكر وجه الشّبه فيه تعويل على فطنة المخاطَب؛ لأنّه ظاهر يفهمه الجميع؛ نحو قولنا: زيد أسد، فلا يَخفى أنّ المعنى المشترك بين المشبّه والمشبّه به هو الشّجاعة، كذلك لا يحتاج إدراك وجه الشّبه بين الحور العين واللّؤلؤ المكنون، طول تفكّر وتدبّر؛ لذلك استُغني عن ذكره بحذفه.

الخاتمة:

لابدّ من أنْ نشيرَ في الختام إلى أنّ الدّرس الأسلوبيّ قد أسعفنا بما أتاح لنا من إمكانات وقدرات على الغوص في أعماق النّصّ القرآنيّ، لاشتمام عبق جماله، وكشف بعض أسرار إعجازه، وتفرّد نظمه؛ إذ وجد فيه مرتعًا خِصبًا، لشموخه وبذخه، وإذا كان القول السّائد يقول: بأنّ في الأسلوبيّة حياةً أخرى للنّصّ؛ فإنّنا نجزم بأنّ في النّصّ القرآنيّ حياةً أخرى للأسلوبيّة.

الهوامش:

١ – البرهان في علوم القرآن، الزّركشي أبو عبد الله، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الأوّل، ص ٣٩١، دار المعرفة – بيروت.

٢ – النّصّ والأسلوبية بين النّظريّة والتطبيق، عدنان بن ذريل، ص ٣٧، منشورات اتّحاد كتاب العرب، السّنة ٢٠٠٠.

٣ – الأسلوب (دراسة نقديّة تحليليّة لأصول الأساليب الأدبيّة)، الشّايب أحمد، ص ٤٩، مكتبة النّهضة المصريّة، الطّبعة التّاسعة.

٤ – النّصّ والأسلوبيّة بين النّظرية والتّطبيق، عدنان بن ذريل، ص ٤٣.

٥ – الأسلوب والأسلوبيّة، أحمد درويش، ص ٦١، مجلّة فصول، القاهرة، العدد الأوّل، السّنة ١٩٨١.

٦ – المنهج الأسلوبيّ في النّقد العربيّ الحديث، بشرى موسى، ص ٢٨٨–٢٨٩، مجلّة علامات، جدّة، العدد ١٠، السّنة ٢٠٠١.

٧ – علم الأسلوب، مفاهيم وتطبيقات، محمّد كريم الكواز، ص ١٢٠–١٢١، منشورات جامعة السّابع من أبريل، ليبيا، الطّبعة الأولى.

٨ – جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمّد بن جرير الطّبري، دار النّشر: دار الفكر، بيروت، السّنة ١٤٠٥هـ.

٩ – تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدّمشقيّ، ص ٢٨٣، الجزء الرّابع، دار الفكر بيروت، السّنة ١٤٠١هـ.

١٠ – ينظر: الكشاف، الزّمخشري، الجزء الرّابع، ص ٤٥٤– ٤٥٥.

١١ – التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدّين الرّازيّ الشّافعيّ، الجزء ٩٢، ص ١٢٢، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، السّنة ١٤٢١هـ.

١٢ – البرهان في علوم القرآن، الزّركشي، الجزء الأول، ص ٣٨.

١٣ – سورة القيامة، الآية: ٩٦.

١٤ – سورة الحديد، الآية ١.

١٥ – البرهان في علوم القرآن، الزّركشي، الجزء الأوّل، ص ٣٥.

١٦ – المصدر نفسه، الجزء نفسه، ص ٣٦.

١٧ – المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصّفحة نفسها.

١٨ – تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق وتعليق: أحمد صقر، ص ١٠، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٥٤.

١٩ – معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس، مادّة / صوت.

٢٠ – معجم التعريفات، الجرجاني، مادّة / صوت.

٢١ – معجم دسنور العلماء، النّكري، مادّة صوت.

٢٢ – أصوات اللّغة العربيّة بين الفصحى واللهجات ، رمضان عبد الله، ص٣٣– ٣٤، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، الطّبعة الأولى، السّنة ٢٠٠٥.

٢٣ – البيان والتّبيين، أبو عثمان عمر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السّلام هارون، مكتبة الخناجي، ص ٧٩، الجزء الأوّل، القاهرة، الطّبعة الأولى، السّنة ١٩٩٨.

٢٤ – سورة الواقعة، الآية ١ – ٢.

٢٥ – مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، ص ١٢٦، دار الشّروق، القاهرة – مصر، الطّبعة السّادسة عشرة، السّنة ٢٠٠٦.

٢٦ – تفسير التحرير والتنوير، محمد الطّاهر بن عاشور، الجزء السّابع، ص ٢٧٣، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، السّنة ١٩٩٧.

٢٧ – جماليات المفردة القرآنية، ياسوف أحمد، ص ٢٢٧، دار المكتبي، سوريا – دمشق، الطّبعة الثانية، السّنة ١٩٩٩.

٢٨ – سورة الواقعة، الآية: ٥٥.

٢٩ – مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، ص ١٣١.

٣٠ – معجم المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، مادة / زقم.

٣١ – المصدر نفسه، المادة نفسها.

٣٢ – معجم المفردات في غريب القرآن، الرّاغب الأصفهاني، مادة / زقم.

٣٣ – جماليّات المفردة القرآنية، ياسوف أحمد، ص ٢٢٦

٣٤ – ينظر: الإعجاز الفني في القرآن، عمر السّلامي، ص ٢٤٦، منشورات مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، السّنة ١٩٨٠.

٣٥ – التّصوير الفنّيّ في القرآن، سيّد قطب، ص ٣٦ –٣٧، دار الشّروق، القاهرة – مصر، الطّبعة السّابعة عشرة، السّنة ٢٠٠٤.

٣٦ – معجم التعريفات، الجرجاني، مادة / نحو.

٣٧ – تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، الجزء السّابع، ص ٢٨١.

٣٨ – المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

٣٩ – سورة الواقعة، الآية: ٨.

٤٠ – نفسها، الآية: ١٠.

٤١ – نفسها، الآية: ٨٣.

٤٢ – نفسها، الآية: ٩٩.

٤٣ – تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، الجزء الأوّل، ص ١٥٠.

٤٤ – معجم الكشاف، الزّمخشري، مادة / العظيم

٤٥ – سورة الواقعة، الآية: ١٥ – ١٦.

٤٦ – نفسها، الآية: من ١٧ ألى ٢٣.

٤٧ – نفسها، الآية: من: ٧٢ –٧٣.

٤٨ – سورة الواقعة، الآية: من ٧١ إلى ٧٣.

٤٩ – نفسها، الآية: ٦٨.

٥٠ – البرهان في علوم القرآن، الزّركشي، الجزء الثّالث، ص ٧٩.

٥١ – البرهان في علوم القرآن، الزّركشي، الجزء الثّالث، ص ٧٩.

٥٢ – معجم الكشاف، الزّمخشريّ، مادّة / لو

٥٣ – سورة الواقعة، الآية: من ١٧ إلى ٢٥.

٥٤ – معجم العين، الفراهيدي، مادة / بين.

٥٥ – معجم تهذيب اللّغة، الأزهري، مادة / بين.

٥٦ – معجم التعريفات، الجرجاني، مادة / البيان.

٥٧ – معجم مقاليد العلوم، جلال الدين السّيوطي، مادة/ البيان.

٥٨ – معجم التّعريفات، الجرجانيّ، مادّة / التّشبيه.

٥٩ – معجم مقاليد العلوم، جلال الدين السّيوطيّ، مادّة/ التّشبيه.

٦٠ – معجم الكشّاف، الزّمخشريّ، مادّة / التّشبيه.

٦١ – سورة الواقعة، الآية: ٥ –٦.

٦٢ – معجم المفردات في غريب القرآن، الرّاغب الأصفهانيّ، مادّة / هباء.

٦٣ – معجم الكشاف، الزّمخشري، مادة / هباء.

٦٤ – مفتاح تلخيص المفتاح، الخلخالي، ص ٥٥١، تحقيق: هاشم محمد هاشم محمود، المكتبة الأزهريّة للتّراث، الطّبعة الأولى، السّنة: ٢٠٠٧.

٦٥ – مفتاح تلخيص المفتاح، الخلخالي، ص ٥٥٢.

٦٦ – المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

٦٧ – سورة الواقعة، الآية: ٢٥.

٦٨ – تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، الجزء الثاني، ص ٢٠٦، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الفكر، بيروت، السّنة ١٤٠١هـ.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، رواية ورش.

١. رمضان عبد الله، أصوات اللّغة العربية بين الفصحى واللهجات، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، الطّبعة الأولى، السّنة ٢٠٠٥.

٢. الشّايب أحمد، الأسلوب (دراسة نقدية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، مكتبة النّهضة المصرية، الطّبعة التاسعة.

٣. أحمد درويش، الأسلوب والأسلوبية، مجلة فصول، القاهرة، العدد الأول، السّنة ١٩٨١.

٤. أحمد عادل عبد المولى، الأسلوبية التطبيقية، التشكيلات اللّغوية والأنساق الثقافية «في الشّعر العذري نموذجًا»، تقديم: محمد عبد المطلب مصطفى، مكتبة الآداب، القاهرة، الطّبعة الأولى، السّنة ٢٠١٣.

٥. الزّركشي أبو عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الأول، دار المعرفة – بيروت.

٦. أبو عثمان عمر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السّلام هارون، مكتبة الخناجي، الجزء الأول، القاهرة، الطّبعة الأولى، السّنة ١٩٩٨.

٧. سيّد قطب، التصوير الفنّيّ في القرآن، دار الشّروق، القاهرة – مصر، الطّبعة السّابعة عشرة، السّنة ٢٠٠٤.

٨. فخر الدّين الرّازيّ الشّافعيّ، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الجزء ٩٢، دار الكتب العلمية، بيروت، الطّبعة الأولى، السّنة ١٤٢١ه.

٩. أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ الخوارزميّ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرّزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، (د. ط – د. ت).

١٠. أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالرّاغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، مكتبة مطبعة الباني الحلبي، مصر ١٩٦١ م، (د. ط).

١١. بشرى موسى، المنهج الأسلوبيّ في النّقد العربي الحديث، مجلّة علامات، جدة، العدد ١٠، السّنة ٢٠٠١.

١٢. عدنان بن ذريل، النّصّ والأسلوبيّة بين النّظرية والتطبيق، منشورات اتّحاد كتاب العرب، السّنة ٢٠٠٠.

١٣. ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق وتعليق: أحمد صقر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٤.

١٤. أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، الجزء الثاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الفكر، بيروت، السّنة ١٤٠١هـ.

١٥. محمد الطّاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الجزء السّابع، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، السّنة ١٩٩٧.

١٦. إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، الجزء الرّابع، دار الفكر بيروت، السّنة ١٤٠١هـ.

١٧. محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار النّشر: دار الفكر، بيروت، السّنة ١٤٠٥هـ.

١٨. القاضي عبد النّبي بن عبد الرّسول الأحمد نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون الملقب بدستور العلماء، تحقيق: غيات الدين الحيدر آبادي، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطّبعة الثانية ١٩٧٥.

١٩. ياسوف أحمد، جماليّات المفردة القرآنيّة، دار المكتبي، سوريا – دمشق، الطّبعة الثانية، السّنة ١٩٩٩.

٢٠. محمد كريم الكواز، علم الأسلوب، مفاهيم وتطبيقات، منشورات جامعة السّابع من أبريل، ليبيا، الطّبعة الأولى.

٢١. سيّد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشّروق، القاهرة – مصر، الطّبعة السّادسة عشرة، السّنة ٢٠٠٦.

٢٢. العلّامة علي بن محمّد السّيّد الشّريف الجرجانيّ، (ت ٧١٦ هـ)، معجم التعريفات، قاموس مصطلحات وتعريفات علم الفقه واللّغة والفلسفة

والمنطق والتصوف والنّحو والصّرف والعروض والبلاغة، تحقيق ودراسة: محمّد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع -القاهرة، الطّبعة الأولى، (د. ت).

٢٣. العلامة شمس الدين محمد بن مظفر الخطيبي الخلخالي، (ت ٧٤٥ هـ)، مفتاح تلخيص المفتاح، تحقيق وتعليق: هاشم محمد هاشم محمود، المكتبة الأزهرية للتراث، الطّبعة الأولى ٢٠٠٧ م.

٢٤. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، (ت ٣٩٥ هـ)، مقاييس اللّغة، تحقيق وضبط: عبد السّلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنّشر والتوزيع، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ١٣٩٩ هـ -١٩٧٩ م، (د. ط).